المسؤولية الكونية و الثقافة العالمية المعاصرة:

Universal responsibility and contemporary world culture

بلواسع ناصر : طالب دكتوراه/ شعبة الفلسفة/ جامعة وهران 2

تحت اشراف : اد.سواريت بن عمر/ شعبة الفلسفة /جامعة وهران 2

الملخص:

لقد برهنت التطبيقات التقنية على قدرتها اللامحدودة في إحداث التغيير الذي لم يقتصر على الإنسان وانما لحق بالنظام البيئي بأسره ، ذلك ما ساعد على تدشين حقل جديد للمعرفة الإنسانية يتميز بهيمنة التقنو علمي على حياة الإنسان و الطبيعة ، وهو ما أدى الى ظهور قضايا معقدة نتجت عن هذه الممارسات التقنية ، أضف إلى ذلك التحالف الذي قام بين هذه التطبيقات التقنية من جهة والمصالح الاقتصادية و السياسية من جهة أخرى و قد أثر ذلك على القانون و القيم الأخلاقية و هو الأمر الذي أعاد طرح الإشكالية الكلاسيكية التي تخص علاقة الإنسان بالطبيعة طرحا جديدا في ضوء المعارف الراهنة .

الكلمات المفتاحية: التقنية ؛ النظام البيئي ؛ حقل المعرفة ؛ الهيمنة ؛ القيم الأخلاقية

Summary

Technical applications have demonstrated their unlimited ability to bring about change which is not limited to humans, but to the whole ecosystem, which helps to inaugurate a new field of human knowledge characterized by the dominance of scientific science on life, man and nature, which has led to the emergence of complex issues resulting from these practices Technology, in addition to the alliance that took place between these technical applications on the one hand and economic and political approaches on the

other, and this has affected the law and moral values, which re-posed the classic problem of the relationship between man and nature a new approach in the light of knowledge The current

Keywords: technology; ecosystem; knowledge field; dominance; ethical values

مقدمة:

ما يميز مجتمع الألفية الثالثة عن مجتمعات القرون السابقة تمييزا جوهريا ،هو تسارع وتيرة التغيرات المناخية التي يشهدها الكوكب.هذه التغيرات جرت معها مخاطر تدفع فتورها الدول الصناعية ولم تنجو منها حتى الشعوب التي هي تحت خط الفقر ،مخاطر بيئية استنزفت أموال طائلة صرفت هنا وهناك لمحاولة إعداد إستراتيجية تكفل إعادة الشروط وجود آدم في الجنة1– على لسان دومنيك بورغ"Dominique Bourg "أو على الأقل تخفف من درجة الاختراقات الكونية.هذا الوضع القائم الذي خلفته منظومة الحداثة وما بعدها،العولمة،والثورة الرقمية ...هي في الحقيقة مصطلحات بالونية روجت لها أبواق سادة التكنولوجيا و الاداتية تحت ذريعة تحقيق اعلي عدد ممكن من النمو الاقتصادي والرخاء الاجتماعي.إنها اليوتوبيا التكنولوجيا استطاعت وبامتياز أن تدمر حلم الإنسان في العيش في أحضان الطبيعة،في الوقت التي كانت تحلم في مدينة مثالية للمستقبل.

ومن بين اكبر المشاكل التي أفرزتها الثورة التكنولوجيا: مشكلة التلوث ومشكلة استنزاف الموارد الطبيعية ، تمظهرت على طبقة الأزون والهندسة الوراثية ووباء الأنفلونزا والأعاصير الاستوائية وغيرها من مشاكل مست انطولوجيا الكائن ومشاكل بيئية جعلت حياة الكون قاب قوسين وأدنى من الزوال.وتجنبا للتمويل، نقول أن أواصر العلاقة بين الكانسان والطبيعة–وهو المراد من المقال–تصدعت ففقدت الطبيعة اتزانها.

وفي سؤال البيئة التي أفرزتها الطوباوية التقنية على ميزان الطبيعة يحق لنا أن نطرح الأسئلة التالية : كيف لنا أن نعيد تأسيس العلاقة بين الإنسان والطبيعة في شئ من التناغم

والانسجام الطبيعيتين؟كيف لنا أن نعيد طبيعة الطبيعة من جراء ما أحدثته الثورة العلمية والتكنولوجيا من انتهاكات لا أخلاقية للبيئة؟

أسئلة باتت تفرض نفسها يوما بعد يوم ومحاولتنا هذه جاءت لإحياء فكرة التناغم الطبيعي والعيش في وفاق معها و الإحياء يتطلب–لا محال–أسسا من طبيعة خاصة تقعد لفكرة عودة الوفاق بين الإنسان والطبيعة لأن عصرنا اليوم لا ينقصه المزيد من التقنية فهو عصر تقني لما يشهده من انجازات علمية وثراء مادي لم يسبق لهما نظير و إذا كانت الإشكالية تتمحور حول علاقة الإنسان بالطبيعة فالأجدر بنا أن نتساءل،لماذا الطبيعة بالذات؟كيف كانت نظرة الإغريق إلى الطبيعة؟وكيف أصبحت في زمن الثورة الرقمية والآدتية ؟

1. مقولة الطبيعة في الفكر الإغريقي :

لا ننكر أن الفكر الإغريقي يبنى على الميتوس "الذي يفسر الأصول السببية لأحداث الطبيعة ونظم البشر"[2]،بيد أن الاتجاه الميتولوجي يعد رد فعل عقلي وروحي لتعليل حالة القلق التي زعزعت سكينة النفس ورضاها لحظة ازدياد حدة التوتر بين الإنسان وذاته وبين الطبيعة ،فتمكن الاتجاه من سحر الأنظار واستقطاب الألباب،فكان موردا للفنون والآداب والعلوم ،وكان مادة خصبة نهلت منها الأقلام حبرها ودونته على صفحات ابدعاتها لهذا جاء اهتمامنا بالإغريق محاولين التعرف على نظرتهم إلى الطبيعة وسنوجز الحديث عن أراء المدرسة الرواقية باعتبارها إحدى المدارس اليونانية التي أولت اهتماما بالغا بالطبيعة وهي في ذات الوقت صاحبت شعار " العيش في وفاق الطبيعة"[3].

وصفت الفلسفة الرواقية بأنها طبيعية لاهتمامها بالماديات "فكل معرفة عندهم حسية أو ترجع إلى الحس"[4].فالإيمان بالطبيعة الحسية جعلهم يرون الوجود في كليته يؤول إلى الطابع الجسماني .والطبيعة عندهم هددت الحيوان بأن جعلته كيف يحفظ بقاءه ويتبع السلوك المناسب،أما الإنسان فأضافت له الطبيعية العقل وهو LOGOS[5] لهذا،فالخير عند الرواقية ما وافق السلوك الإنساني الطبيعة،أي موافقة القانون الكوني الذي يخضع له كل شئ في الوجود.

من هنا،جاءت فكرة التناغم الطبيعي"،وهي مقولة لا تعني العودة إلى الحياة الطبيعية الحيوانية التي لا تعرف قيمة ولا ضابطا،و إنما الاحتكام إلى نواميس الطبيعية الثابتة والمتلائمة مع عقل الإنسان،هذا العقل الجزئي المنشق من العقل الكلي الكوني له غاية واحدة هي العيش في تلاؤم مع العالم اجمع،إذ أن الإنسان حين يأتمر بواجبات العقل،لا يكون موافقا لنفسه فقط،بل يكون موافقا لمجموع الأشياء أي للكون بأسره[6].وهذا ما تعبر عنه خواطر "مرقس اوريليوس"الروماني Marc Auréle (121–180م) حين قال "كل شئ يلائمني اذا لائمك أيها العالم ! وما جاء في الوقت الملائم بالنسبة إليك،فليس متقدما ولا متأخرا بالنسبة إلي.وكل ما جاءتني به فصولك ايتها الطبيعة فهو ثمرة عندي.وكل شيئ يأتي منك،وكل شيء فيك ،وكل شيء يعود إليك"[7].فهي بمثابة"الأم الكبرى"،للإنسان حق عليهما كما للام التي أنجبته حق عليه،ومرجعية هذا التشبيه مستمدة من اسطورة غايا Gaia الاغريقية التي ترى ان الطبيعة هي الام لها قداستها ما للام من حرمة وقداسة،واذا كانت الام قد ولدت اطفالا فالامر بعينه للطبيعة فهي الكائن الحي،البشر اجنة في ربطها انجبتهم وفرضت عليهم الالتزام بنواميسها والعيش وفقها تحصيلا للسعادة التي كتب عنها "سينكا"Sénèque(4قم–65م) قائلا:وانه من الصعوبة بمكان تحقيق حياة سعيدة بمجرد فقدان الطريق،فنبتعد عن الهدف أكثر من سعينا الحثيث لبلوغه[8].وكان المراد من فقدان الطريق عنده ،الابتعاد عن القانون الطبيعي الكلي،والعمل خارج ما تقتضيه الحكمة والفضيلة .فالطبيعة بهذا التعبير الميتولوجي على الشروط الطبيعية المتزنة.ومرد ذلك أن للإنسان ميزان ذاتي،انتظامه مرهون بانتظام ميزان الطبيعة،فمأكلنا ومشربنا وملبسا ومأوانا وكل مآربنا شديدة الصلة بالطبيعة وهكذا،تكون جميع حاجاته قد قضيت.

نقول هذا ونحن نرى أن الفلسفة الرواقية أدركت مدى قيمة الميزان الطبيعي فتكلمت ضمنيا عن السلسة الغذائية المدرجة في الدرس البيولوجي بدليل أن كريسيب Chrysippe (280–206ق م) ،يرى أن الطبيعة توجب على كل حي القيام بدوره في تكامل وظيفي،فالأشياء خلقت لخدمة بعضها البعض،فالبذور والثمار التي تنتجها الأرض خلقت للحيوانات،والحيوانات للإنسان،والحصان للحمل،والثور للحرث،والكلب للصيد،أو الحراسة، والإنسان نفسه خلق للتأمل والعيش في وفاق مع

الطبيعة[9].ولم تكتف الطبيعة بأن توفر للإنسان مقومات البيولوجيا،بل حركت فكره ايضا وأنعشت أحاسيسه وطمعت وجدانه بالحب والرأفة والتسامح،فقد ولد ليتأمل ظواهرها ولعيش ود معها.

ولكن،امام هذا السيل الجارف من العطايا الطبيعية قابلها الإنسان بفضاضة وغلضة مشهرا ترسانته العلمية في وجه من سخر لخدمته معتبرا إحكام القبضة على الطبيعة والسيطرة عليها سيوفر له شروط العيش الرغد.وكان هذا التصور القائم قد احدثته بعض المفاهيم الحديثة التي على اثرها قامت تنبؤات بتغيير خلق الانسان والتحكم في وراثته بإطالة اعماره وتعليق الموت واستنساخ الافراد والمزاوجة بين نفس النوع وغيرها من الفاجعات التي مست البيئة الطبيعية.وهذا التحول – كما اسلفنا–مرده الى فكرة تسييد الانسان على الطبيعة فما هي تداعياتها على النظام البيئي الطبيعي؟

2.تداعيات مقولة" تسي يد الانسان على الطبيعة ":

من الفكر الاغريقي الى مطلع القرن السابع عشر،اتسعت الفجوة بين الانسان والطبيعة فلم يعد الاعتصام موجودا بينهما،بل برزت مع بزوغ العلم الحديث في اوروبا فكرة تذليل الظواهر الطبيعية وتسخيرها لسعادة الكائن العاقل بفهم قوانينها وحتمية نواميسها .هذا التصور الحديث بمثابة السيف الذي سل من غمده ليجابه به الانسان الطبيعة،وكانت النتيجة ان تراجعت الطبيعة ولم تصبح الطبيعة العذراء الفاتنة التي خصبت عقول القدامى ورهفت حسهم ووسعت خيالهم وساعدت على نمو قدراتهم النفسية الخاصة.

انه تحول جذري في نظرة الإنسان إلى الطبيعة مشهد جعل الإنسان خارج الطبيعة يأمل أن يراها على نحو أفضل محصنا بفلسفة تجريبية وأخرى ميكانيكية غلبت على أعمال كل من :"فرانسيس بيكون (1561–1626)و"غاليلي"(1564–1642)و"رونيه ديكارت"(1596–1650).

فمثلا "بيكون" لا يرى للتقدم أملا إلا إذا ارتد إلى قوة الانسان العلمية،فالطبيعة هي مملكة المعرفة الإنسانية والميدان الوحيد المثمر والمأمول لسيرة الانسان،فإذا تجاوز الانسان هذا المقصد والسبيل فلن يعرف او يفعل شيئا،فيصبر الانسان سيد الكائنات وتاج الخليفة وبطل الرواية الكونية[10]،والتمكين هذا عند "بيكون"يكون بالمنهج التجريبي،اما عند "ديكارت" فقد اتبع خلفه في ترسيخ في

فكرة الاستعلاء على الكائنات بعد كتابة مؤلفه"مقال عن منهج"Discours de la méthodeوفي قسمه السادس صرخ بضرورة ان نجعل أنفسنا سادة الطبيعة ومالكيها[11]،عندما اصبغ الطابع الميكانيكي على العالم متبعا المنهج العلمي الاستنباطي.هذا المسار الخطي الديكارتي الصارم،الذي يقضي بأن السبب لا ينتج سوى نتيجة واحدة،وان النتيجة لا تنتج إلا عن سبب واحد ،جعل صاحبه يستبدل التصور الحديث للعالم الذي يعتبر الكون "الة ميكانيكية ضخمة مغلقة على ذاتها،من مادة متجانسة،تسيير تلقائيا بواسطة عللها الداخلية،وتبعا لقوانينها الخاصة في مسار تفضي كل حالة من حالاته الى الحالة التالية"[12]،بتصور كان يرى العالم مجرد قوة تديرها الطبيعة،والطبيعة هي مجموع الأشياء الإلهية والأشياء الإنسانية والتي تشكل في النهاية قوة موحدة أو مدينة "cite " لا اشياء خارجها يقول عثمان أمين "ناقلا لنا التصور الرواقي الطبيعية "العالم كله ليس إلا كائنا واحدة حيا متنفسا ،ما يحصل في جزء منه يؤثر في جميع أجزائه،وما يؤثر في الكل يؤثر في كل جزء"[13].

فالمحدثون من الفلاسفة والعلماء كانت تدفعهم رغبة جامحة في استعادة مملكة الانسان على الأرض وتسيده على باقي المخلوقات وتحريره من مشاق العمل المضني ليمارس ملكاته العقلية بكل حرية [14].كانت تلك نقطة إطلاق خلفهم البعيد،وهم دعاة "الوضعانية"والعلمانية"،فحافظوا على هذا الشعار بتبنيهم للمنهج التجريبي والترويضي–شريعة العلم الحديث–كأساس لنظام العلمي–التقني l'ordre technoscientifique .فالنظرية العلمية لا تكون كذلك إلا بعد إتباع الطريقة الاستنباطية معا،ومنهجان سيثمران انساقا من القوانين تتأرجح بين الإمكان ببعده النظري والتمكن ببعده العلمي،"فبمقتضى السيادة في هذا النظام أن يتولى الانسان أفاق إلا مكان التي تنفتح في النظر و ايضا أبعاد التمكن التي تبرز في العمل،وليست لهذه السيادة غاية تقف عندها ولا نهاية لا تجد لها ازدياد بعدها،لان تمام السيادة الذي تطلبه عقلانية النظام العلمي–التقني الحديث هو بالذات أن يجعل الانسان الكل ممكنا ويتمكن من ناصية الكل "[15].وبهذا المفهوم تتمفصل السيادة الى ثلاثة تحديدات،وهي:سيادة التنبؤ التي تكسب النظام النظام العلمي–التقني سلطان السطوة،وسيادة التحكم التي تكسبه سلطان البأس وسيادة التصرف التي تكسبه سيادة البطش ولا عجب أن تكون هذا السيادات الثلاث هي المحك لعلمنة الظاهرة وفق مبدأي التجريب والترييض، اما ما تعذر إخضاعه

لهذين المبدأين يعتبر عائقا لابد من قطع الصلة به ولا يوجد الا ما هو ديني أخلاقي قابل لهذا الوصف والتصور[16].

هنا نقول ان النظام العلمي–التقني للعصر المعاصر انفصل عن المعايير الدينية والقييم الاخلاقية فأسقط معيار التقويم الانساني واثبت بدله معيار التقويم المادي.فتداعيات السيادة والتملك والغزو "اكسب الثورة التكنولوجيا طابعا ماديا منحرفا أفرزت عقلانية متطرفة فلا إصلاح للوضع الكوني اذا إلا بعودة هذه الأسس الاخلاقية المسلوبة والتي أحدثته انزلاقات العقلانية لمحدثة والتكنولوجيا المفرطة ويوتوبيا الميدنة المثالية.

ومن بين أهم النظريات التي بادرت بعقد الصلح بين الانسان والطبيعة نذكر :

3.نظريات عقد الصلح بين الانسان والطبيعة:

1.3نظرية المسؤولية:تعود هذه النظرية الى الفيلسوف الألماني "هانس يوناس H.jonas (1903–1993) الذي أسسها في كتابة مبدأ المسؤولية:أخلاقيات من اجل الحضارة التكنولوجيا"[17]،وهو يرى ان التوازن الطبيعي يتوقف في كليته على الانسان من خلال ما تأخذه أفعاله من معان طالما يعد المستهلك الأول لما ينتجه العلم–التقني،كما انه الكائن الوحيد القادر والحر والمتحمل لتبعات ما يختاره من سلوكات ،الأمر الذي سيعينه في النهاية على مواجهة مخاطر وتهديدات العلوم–التقنية.فاختراعات التكنولوجيا المتواصلة والمتكاثرة أفرزت تغيرات في أمور المجتمع الانساني وتحولات الحياة الطبيعية ما لأي مكن تصوره،ولا منفذ لنا من هذه الأزمة التي طالت العالم كله سوى تجديد أخلاقياتنا عن طريق عقد ميثاق بيننا وبين الطبيعة كما أقمنا ميثاقا من قبل بيننا وبين المجتمع[18].و أساس هذا الميثاق هو "مبدأ المسؤولية"،ولتفعليه لابد من تحصيل شعور بالخوف لما تنتجه العلوم التقنية من مفاسد على الطبيعة وقد يكون الخوف حلا مؤيدا لإدخال تعديلات حول سلوكات الانسان،كما قد يكون طريقا لتأسيس علوم جديدة أخذه بعين الاعتبار مبادئ العقل والأخلاق.وتشييدنا لتصورات مؤسسة على تلك الا بعاد لإنقاذ الطبيعة والانسانية سيكون الطريق الرئيسي للتقليل من تطورات العلوم–التقنية.وقد صاغ "يوناس" مبدأه

الأخلاقي الذي يضبط هذا المسؤولية المشروطة بالخوف في شكل الأمر الجازم على طريقة "كانط"Kant في صياغته للقواعد الاخلاقية وهذا المبدأ هو:

–"لتأت فعلك على الوجه الذي يجعل أثاره تصون الحياة الانسانية الحقة على وجه الارض[19]".فمنطق المسؤولية الاخلاقية الذي اقترح "يوناس"سيجدد نظرة الانسان نحو الطبيعة وسيعمل على ترسيخ فكرة المصالحة معها على أساس مبدأ هام أشارت إليه النظرية وللمبدأ حضور في مقال "دومنيك بورغ"حين قال:"لقد كانت الطبيعة والبيئة الأرضية ،سابقة على وجودنا نحن،لذا لا يمكننا ان نجعل الهدف الوحيد لنشاطنا هو محاربتها واستبدال الرأسمال الطبيعي بآخر تقني.يجب علينا ان نتعلم من جديد الاعتراف بالأسبقية المطلقة للمعطى"[20].فالاعتراف بالأسبقية فعل أخلاقي لا يستوجب الالتزام،و إنما نداء الخير الموجه الى الإرادة التي تفرض إتباع القانون الأخلاقي الذي ينص على احترام من هو اسبق منا في الوجود وكذا النصوص الإلهية أقرت هذا ،ان ينزل الكون–كخلق سابق على الانسان–منزلة الآية الدالة على عظم الخالق بعيدا عن الاستخفاف بالكائنات الطبيعية.

2.3 **نظرية التواصل:**أصولها تعود الى الفيلسوفين الالمانين "كارل اوتو ابل Karol-Otto Appel في رسالته:في مسألة التأسيس العقلي للأخلاقيات في عهد العلم،و"يورغان هابرماس" Jurgen Habermasفي كتابه الاخلاق والتواصل.وياتي اهتمامنا بمدرسة فرانكفورت "وبوريثها هابرماس"[21] الى ثقل النظرية النقدية التي تبناها الفكر اللغوي وقد جاءت النظرية في معرض تتبعه الدقيق لنتائج النزعة الوضعية والعلموية(Scientisme) في المجتمعات الصناعية المتقدمة،ولتطور مفاهيمها على المؤسسات،ومن ثم نشوء هيمنتها التدريجية على الفرد والمجتمع ومتحكمة في الأبعاد الانسانية المستقلة داخل الوعي الجماعي.

وانعكاسات هذه الفلسفة ازمت العقلانية المحدثة وقادت العالم الى طريق مسدود.وما نسعى الى إيضاحه هو موقف"هابرماس" من تلك الفلسفة التي اعتقدت بالعلم اعتقادا يصل الى حد القدرة على تقديم أجوبة لكل الأسئلة وحل لكل مشاكل،الجنوح نحو التقنية والتطبيق العلمي لأدواتها كفيل في نظرهم الى تقدم المجتمع.هذا العقلانية التقنية التي أثرت التحديث المادي على التجديد الروحي

سلبت القيم الانسانية،وجعلت التكنولوجيا تضفي على الأشياء صفة الأدوات وتحيلها الى وسائل نفعية،وبهذا التصور تصير التكنولوجيا–التي أحكمت قبضتها البرجوازية–عائقا اما تحرر الانسان وصون طبيعة الطبيعة والمحافظة على رأسمالها الأصلي،ف "هبرماس" لم يكف عن السعي نحو هدفه الأساسي المتمثل في تكوين منحى أخلاقي جديد ينفتح باتجاه اتصالية جديدة تعمق العلاقة بين الفرد ومجتمعه وذلك الواقع المغلق القائم الذي تلازمه صفة الافتقار الى المشروعية والمساواة ويسوده الوعي التقريري"[22].هذا المفهوم العقلاني الذي تطرحه الطوباوية التقنية يقدم صورة سوداوية للوضع المأساوي للانسان.وينبئ بحلقات درامية سيعيشها إنسان الألفية الثالث بسبب التطور الصناعي والتكنولوجي سريع الوتيرة .وكلما ساءت العلاقات الاجتماعية واغترب الانسان في غيابات التقنية اتبعه تراجع مخيف للطبيعة .

وكحل لهذه الازمة يسعى "هابرماس" الى تأسيس نسق جديد من الاتصال بين الفرد والمجتمع بما في ذلك الطبيعة،وهو اتصال يسوده خطاب عقلاني اخلاقي من شأنه ان يعيد الانسان إنسانيته وللطبيعة طبيعتها،ويكون خطابا مشتركا بين جميع أمم الأرض على تباين ثقافاتها ونظمها،هذا ما قصده "ابل"من"الأخلاقيات الكبرى"[23]Macro-ethique

3.3**نظرية الضعف**:ويقودها الفيلسوفان الفرنسيان"جاك ايلول"Jacques Ellulفي مقالته الشهيرة "بحث من اجل أخلاقيات المجتمع التقني "،ودومنيك جانيكو"Dominique Janicaud في كتابه "قوة العقل".وهما يسعيان الى التقليل من استعمالات التقنية والزهد في جزء منها لا عجز عن استعمالها،بل تفاديا ما ستلحقه من أثار مدمرة ويكون ذلك بترك العمل بالقواعد التي املتها التقنية تجنبا لتسليح الانسان واستلابه،ويكون ايضا بوزن ابتكارتنا العلمية وإعداد لها خطة معينة مع ما يوافق المتطلبات الايكولوجية قبل الإقدام على استغلالها ميدانيا اخذين بعين الاعتبار مستقبل المعمورة انه معيار أملته قوة العقل التي تجعل المرء يحيا حياة فاضلة موافقة للطبيعة،وهذا ما تتطلبه الحكمة العقلية وفي المقابل بإمكان مبدأ العقل ان ينقلب الى ضده"فيكون الانقلاب بمنزلة الحد المرسوم،الذي لا يمكن ان تتخطاه العقلانية في سلطانها"[24].

الظاهر مما تقدم ان النظريات الثلاث في استعادة الصلح بين الانسان والطبيعة:

"نظرية المسؤولية و "نظرية التواصل" و"نظرية الضعف"، قامت بتصحيح السيادات الثلاث التي ارتبطت بالحضارة العلمية–التقنية للعالم،وهي "التنبؤ والتحكم والتصرف"،تصحيحا قائما على تجديد اخلاقيات الانسان المعاصر.الا ان هذه الأصول الاخلاقية لم تخرج عن الأخلاقيات القديمة الا خروجا ظاهريا تعلق بمنهجية التدليل أكثر مما تعلق بمضمونية التحليل ،فعلى الرغم من نحت مصطلحات تظهر عليها معالم التجديد ك:"العقد الطبيعي" وأخلاق التواصل" و"مبدأ المسؤولية" بيدو أنها تحمل كلمة إغريقية تؤول كلها الى معنى "التعقل"[25] و"الفضيلة" أي اللوجوس LOGOS وفرتيس VIRTUS".

ومهما يكن من تقارب بين النظرتين القديمة والمعاصرة في المبادئ الاخلاقية لإنقاذ الطبيعة والعيش في تناغم معها،وفي كون الفلسفة المتبناة عندهم عملية تستوجب احترام من نتعامل معه الا ان الإشكالية الايكولوجية مازالت مطروحة في أجندة المهتمين بالبيئة،وحلها مرهون بتجديد المفاهيم والتصورات حيال الانسان والطبيعة فيبقى انه جزء من هذا العالم يتصرف على اعتباره انه السيد الأوحد الذي سخر له كل شيء، فتصحيح مفهوم السيادة ضرورة حتمية لاعادة الوفاق بين الانسان والطبيعة،والمراد من السيادة في المفهوم التصحيحي هو إنزال الانسان–الذي ادعى نفسه سيدا–الى منزلة المسود–ولا يتأتى هذا الا بإقرار بوجود سيد قاهر فوقه،ـــو اما ان يكون هذا السيد النظام العلمي –التقني ا وان يكون غير هذا النظام،ومحال ان يكون الأول لأنه اثبت عجزه في الحفاظ على الطبيعة إذن هو من له مقاليد السماوات والأرض جل جلاله26.وهذا يقودنا الى الإقرار بمدأ استخلاف الله تعالى وتعمير الأرض واستفادة من خيراتها الحيوية وغير الحيوية الذي لا ينبغي ان يمتد الى حد الإخلال بالتوازن البيئي[27] أو التعالي عليهما طالما ان النصوص القرانية تكلمت عن تسخير عطايا الطبيعة للانسان في أزيد من عشرين آية.

يعطي هانس جوناس في كتابه المعروف : المبدأ المسؤولية ، لمفهوم المسؤولية وظيفة أخلاقية دقيقة جدا ، فينطلق المؤلف من قناعة أن العلم و التكنولوجيا الحديثة قد أثارت قطيعة في العلاقة بين الإنسان و الطبيعة : الإنسانية قادرة من الآن فصاعدا على التعديل الجذري أو حتى على تحطيم محيطها الطبيعي ، لينتج عن هذه القدرة كما يعترف جوناس بواجب أخلاقي جديد يتمثل في العناية

بالطبيعة ،و لتدعيم هذه الأطروحة يستدعي تصورا لاهوتيا للطبيعة بجوانب مدهشة أحيانا ، يدعم على الخصوص نوعا من النفسانية أو الحياتية panpsychisme و تنشيط المادة ، لكن ما صدم العقول هو استعمال استعارة العلاقة بين الآباء و الأبناء مثلما هي الطيبة الضمنية للأطفال وهشاشتهم مصدر لالتزامات الوالدين اتجاههم و مولدا للشعور بالمسؤولية عندهم ، خضوع الطبيعة وهشاشتها تستدعي من الإنسان من الآن فصاعدا أن ينمي اتجاهها سلوكا جوهره العناية و المسؤولية .

لا يعني جوناس بمفهوم " الطبيعة " الكون بطبيعة الحال . ان الفكر المتعلق بالكون لن يثير الشعور بالمسؤولية حتى و ان أثار شعورا بالإعجاب أو بالانسحاق ، ما ينبغي فهمه من الطبيعة هو المجال الحيوي و سكانه (القشرة الارضية بما فوقها من مظاهر الحياة و نبات و حيوان) لكن ألا تقع استعارة " الآباء / الأبناء " في التسطيح هنا مثلما هو الأمر في حالة الكون ؟ بعض القدرة على الإضرار بالمجال الحيوي ، بيد أن هذه القدرة محدودة قطعا بفعل أن الإنسان إذا غير محيطه الطبيعي تغييرا جذريا فسيكون أول ضحايا هذا التغيير . و إذا انقرض النوع الإنساني فانه سيكون للطبيعة من دون شك قدرات على التوالد من جديد ، كافية لتعويضه بأشكال أخرى من الحياة .

بإمكاننا التنديد بالإفناء الممكن او المحتمل للنوع الإنساني إلا أن وجهة نظر الطبيعة لا تكمن هنا ، فليست لها أية نية في هذا المجال ، بل هي نية الإنسان نفسه ، ما هو ـــــــــ أخيرا ـــــــــــ هذا " المبدأ المسؤولية " إن لم يكن تنميقا يحيط بهالة أخلاقية الاهتمام المفهوم جيدا للإنسان بألا يقطع الغصن الذي يجلس عليه ؟ هذا إن لم يتعلق الأمر بوصف ذي شجون لواجبنا الممثل في الوفاء للأجيال القادمة .

تنطلق فلسفة يوناس من مسلمة مفادها أن التقنية لا تمتلك روحا لهذا فهي تدفع الإنسان إلى الأمام في فراغ بالإضافة إلى ذلك فقد أصبحت الأخلاق الكلاسيكية فكرة قديمة كونها عاجزة تماما عن تحليل اثر التقنية على الطبيعة .

لقد دق يوناس ناقوس الخطر فالإنسان تجاوز عتبة المعقولية مستمرا في الإبداع دون وعي بالخطر المحدق به:انه يلوث ويستهلك موارد الطبيعة بإفراط ويعرضها بصفة عامة للخطر،كما أن القدرات التي من جهته إياها التقنية لا تناسب طردا من معرفته،لهذا السبب كان من الضروري مواجهة

هذا الاكتساح التكنولوجي لتجنب طريق ايكاورس الذي يقود إلى نهاية الوجود.هذه الفكرة سمحت ليوناس بنقد **مبدأ الأمل** لارنست بلوخ، الذي لا يعتبر سوى دلالة ميزت الحداثة الفلسفية.

النقد الصارم عن يوناس موجه إلى الطوباويات الحديثة-بصفة عامة –التي يرى أنها استوحت فعاليتها من تأثير بروميتوس prométhéé ، فهي ضرورة استوجبتها العدمية والتي تترجم في نظريتها المغالية للتطور أو التقدم الذي يقود إلى إنكار قيمة ارث الإنسانية ضمن إطار الفلسفة تثبت ذاتها تحت مقولة لاشيء نفقده.وهنا يجب أن نضيف بأن يوناس لم يدر ظهره للطوباويات التقنية فحسب التي تدعي إن التطور التكنولوجي سيجد حلولا للمشاكل التي يطرحها بل هذا فعله أيضا مع الوضعية .

لهذا كان من المستعجل الاستنجاد بأخلاق جديدة تناسب وهذا الوضع الجديدة ويعد يوناس أول من اقترح أخلاقا للحضارة النقدية معاينا ضعف الطبيعة،بل أن النظام الحيوي بأكمله مهدد بالخطر ،مستنجدا في ذلك بأخلاق المسؤولية التي تتطلع نحو المستقبل .

ذو الأخلاق تدعو لحماية ووقاية الإنسانية والطبيعية مستقبلا ومن ثمة استبعاد كل ما يفعله الإنسان لمنفعة آنية وعابرة بل يجب استبعاد كل ما سبب الضرر والأذى للبيئة على المدى البعيد .وتعتبر هذه الأخلاق نظرية للفعل،لا تجبر وضعية الإنسان الحاضرة على إيداع فلسفة تساعد على التنبؤ واستبعاد الخطر الذي يهدد البقاء.

على الرغم من أن الإنسان يعرف جيدا انه يلوث ويستنفذ الموارد الطبيعية ويتلف الغابات،ويعمل على تغيير ماهيته البيولوجية بل ويهدد باستمرار الطبيعة ومع ذلك فهو يواصل أفعاله بالشكل ذاته وكأنه لا يعرف أن نمط آخر للحياة،حينئذ يبقى الخوف هو الوسيلة الوحيدة التي تهز الإنسان وتجبره على التغيير،فالشعور بالخوف وسيلة تكشف عن الأخطار المحدقة بالإنسانية كما انه يعد في الوقت ذاته وسيلة لبناء الأخلاق إذ يمكن اعتباره بمثابة البوصلة التي تحدد الاتجاه لتجنب الأسوأ.

إنها فلسفة لا تيمز بين النظري والتطبيقي فضمان مستقبل الإنسانية يعتبر ضرورة واقعية،يجب نقدها دون تأخير باسم إنسانيتنا ومنها ليس من الغرابة في هذا السياق أن يكون الطفل حديث الولادة هو أصل المسؤولية لأنه ضعيف،وهو ما يتطلب في كل لحظة الاهتمام به فالضعف الطبيعي للأطفال يجعل الإنسان مسؤولا عنهم بطريقة تامة وهذا ما يدفع إلى ضمان بقائهم وبالمقابل فهم أيضا بحاجة إلى سلطة

أب الذي يمثل منطقيا نموذجا لكل سلطة سياسية وبهذا يكون يوناس قد احدث انقلابا في القيم الديمقراطية وذلك باقتراحه الحلول التي تحد الحريات الفردية عندما تعرض هذه الأخير بقاء الإنسانية للخطر . وفي الأخير تبقى الطبيعة مدينة الانسان وموطنه ،حمايتها مهمة الجميع لضمان من يعيش فيها وهذه الحماية تتطلب تجنيد سائر الفئات والهيئات الحكومية وفق إستراتيجية محكمة لإعداد جيل واع بالمخاطر البيئية التي تهدد جنسه ومن يشاركه العيش من حي وجماد.فالإنسان الكائن العاقل الحر المريد هو الوحيد من يتقلد أي فعل لا مسؤول حيال الطبيعة درءا للمخاطر التي تحوم حولها.فترميم الشروخ وجبر التصدعات استرضاء للمجني عليه بلا حق بنشر الوعي والتربية الايكولوجية وتصحيح مفهوم السيادة يكفل لامحال إعادة الوفاق بين الانسان والطبيعة.

الهوامش :

1دومنيك بورغ تراجع الطبيعة،مجلة الثقافة العالمية،العدد93،مارس–افريل1999،الكويت ص135.

2الخطيب محمد،الفكر الاغريقي،منشورات دار علاء الدين،دمشق،ط1، 1999 ص11

أسست المدرسة الرواقية في اثينا بداية القرن3(ق.م) على يد زيتون الكيتومي zenon Citium (335–264ق.م) المنحدر في قبرص،وقد اصبح زيتون بعد ان رحل اثينا يعلم ويلقن تلامذته الفلسفة في ممر مكشوف مسقوف بعقود على اعمدة وهذا ما يدعى بالرواق المشتق من الاصل اليوناني STOA المرادف للكلمة الفرنسية PORTIQUE الموجودة في ساحة اثينا المعروفة ب "AGORA "

Diogéne.Laerce ,Vies et doctrines des Stoiciens,Traduction : Richard Goulet Générale Francaise,2006,p.92. 3

4 الخطيب محمد ،الفكر الاغريقي،ص231.

5 مطر،اميرة حلمي،الفلسفة عند اليونان،دار الثقافة للنشر والتوزيع،القاهرة،ط2، 1986، ص408 .

6 امين،عثمان،الفلسفة الرواقية،مطبعة الانجلو مصرية،القاهرة،ط3، د(ت)، ص199.

7نقلا: عثمان،امين،الفلسفة الرواقية ،ص ص199، 200.

8 Sénéque La vie heueeuse,Traduction :J.Baillard ,Gallimard ,1996,P.31.

9 Jean,Brun,textes choisis,Cicéron,De natura deorum,II,4,deuxiéme édition,presses universitaires de France,1962,p54.

10 طريف الخولي،يمنى،فلسفة العلم في القرن العشرين،المجلس الوطني للثقافة والفنون والادب،الكويت2000،ص64.

11ديكارت ،رونيه،مقال في منهج،ترجمة:محمود محمد الخضيري،الهيئة المصرية للكتاب،مصر،1985،ص268.

12طريف الخولي،يمنى،فلسفة العلم في القرن العشرين ،ص103.

13امين،عثمان،الفلسفة الرواقية ،ص172.

14–زكرياء،فؤاد،التفكير العلمي،المجلس الوطني للثقافة والفنون والادب،الكويت،1978،ص178.

15عبد الرحمان،طه،سؤال الاخلاق،مساهمة في النقد الاخلاقي للحداثة الغربية ،المركز الثقافي العربي،الدار البيضاء،المغرب،ط2 ،2005، ص115.

16 المرجع نفسه،من ص118 الى ص121.

17Voir :Hans Jonas ,Le Principe de responsabilité,une éthique pour la civilisation technologique

18عبد الرحمان،طه،سؤال الاخلاق ،ص124.

19المرجع نفسه،ص124.

20دومينيك بورغ،تراجع الطبيعة، ص139.

21طاهر،علاء،مدرسة فرانكفورت،من هوركهايمر الى هابر ماز،منشورات مركز الانماء القومي،لبنان،ط1،د(ت)،ص107.

22 المرجع نفسه،ص107.

23عبد الرحمان،طه،سؤال الأخلاق ،ص126.

24المرجع نفسه،ص128.

25المرجع نفسه،ص130.

26 المرجع نفسه،ص132.

27الكرمي،زهير،العلم ومشكلات الإنسان المعاصر،المجلس الوطني للثقافة والفنون والاداب،الكويت،1978،ص15.